

الجزء الرابع
السنة الثانية

المعرفة

أول أغسطس سنة ١٩٣٢
ربيع الأول سنة ١٣٥١

مجلة - شهرية - جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول

عبد العزيز الأسيدي

العدد ١٦

شعارها : اعرف نفسك بنفسك

المجلد الثالث

المنفلوطي : كاتب العاطفة والوجدان

[كتبت لمناسبة اعترام خريجي الجامعة المصرية إحياء ذكراه]

فكرة البحث

اعتزم فريق من خريجي الجامعة الأوفياء إحياء ذكرى فقيه الأدب العربي ، المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطي ، لمناسبة مرور ثمانية أعوام على وفاته . وليس من شك في أن تلك الفكرة - التي اعترم خريجو الجامعة إتقادها - فكرة جلية ، جذيرة بالذبوع ، قيمية بالتشجيع ، لما للمرحوم المنفلوطي من أثر - وأى أثر - في الأدب العربي ، ومن حب - وأى حب - في قلوب طلابه ومريديه .

فن حق المنفلوطي إذن على طلابه ، وتلاميذه ، والمنتفعين بأدبه ، والمقتنعين أثره ، أن يخلدوا ذكرى رجل كانت له اليد الطولى في خلق الأدب المصري ، بل كانت له القسط الأوفر في إنشاء « الدراما المصرية » .

فلقد كان المنفلوطي ، منذ بداية شبابه ، حتى آخر نفس من حياته ، يمثل الدراما وتمثله أدق تمثيل ، فكان يكافح أغلال الحياة بقوة وصبر ، ويناضل أرزاه الأيام بجهد وانثاد ، حتى تكسرت الأصغاد ، وتحطمت الأغلال ، وصمدت إلى جانبه حياة داوية ، من الشهرة الذائعة والرواج المنشود . وإذا كنا سنقتصر الكلام - في إمامتنا هذه - على عاطفته ، فرجع ذلك إلى حضرات الداعين إلى إحياء ذكراه ، الذين تفضلوا فاختصوا كاتب هذه السطور بتلك الناحية ، رغم ما تتطلب من دقة وتحديد ، ونحن إذ نحاول الكتابة على المنفلوطي ، فأما تتردم - في بعض نواحي البحث - أسلوب المنفلوطي ، إحياء لذكرى المنفلوطي .

المرحلة الأولى

يا لها من أيام ! تلك التي استهل بها كاتبنا النابه الخالد حياته ! لقد كانت أياماً عجافاً ، عرف فيها « المنفلوطي » كيف يصطنع نفسه ، وكيف يلقي على عواطفه شعاعاً من الخير ، وضوءاً من الحياة . !

لقد كانت أياماً تقالا ، لم تتمزق فيها أوامر الشقاء ، ولم يقوضها معول الأمل ، ولكن قوضها وأتى عليها معول الطموح .

وكانت أياماً شديداً ، ركن المنفلوطي فيها إلى تلك الحجره المادئة الضيقة المظلمة التي لا تطل على الفناء الفخيم ، ولا على الباحة الرحبية ، ولا على السرحة العيانية ، ولا على المشاهد الفتاة ، وإنما كانت تطل على أخوص ضيق ، كأخوص القطاة ، هو زقاق يتفرع من أحد الشوارع الباقية حتى اليوم في « كفر الطماعين » .

ولم يكن المنفلوطي منذ كان يطلب العلم في الأزهر ليرضى في شأن من شؤونه بما يرضى به ضعاف النفوس ، أو صفار الأحلام ، أولئك الذين يجمعون إلى أنفسهم أوامر الزلنى بالبارزين في سجل المال وحده ، وإنما بقي منذ بداءة حياته ، حتى آخر مرحلة من مراحل حياته ، يجالذ الصغار ، ويناضل الضعة ، ويتألب على السفاسف ، ويزيد في خلقه مكانة ، وفي كبريائه قوة ، وفي عزة نفسه مناعة ، وفي تمرده على الحادثات عزمًا وانطلاقًا .

وهكذا عاش الرجل ، وهكذا مات الرجل ، دون أن يدنس يده بشيء ، أو يصمر خده لإنسان ، أو يريق ماء وجهه لعظيم ، أو يبذل كرامته نهياً مقسماً بين الناس .

لهذا لم تتحرك روح الآلام في مصر حركة عنيفة لفقدان أديب نابه كما تحركت يوم مات المنفلوطي ، ذلكم الرجل الذي عاش ليؤدي رسالته إلى الناس في حق ويقين ، وليوحي إليهم حقائق الحياة الصريحة ، واضعاً أيديهم على مواطن الآسى والشجون .

بؤس وشقاء ...

ترى أى سر هائل كانت تكتمه نفس المنفلوطي الفتية ؟ وأية مأساة عنيفة تلك التي استهل بها حياته ، وما يزال يافعاً صيباً ؟ بل أى حزن شامل ذلك الذي كانت تتفجر ينايمه في مسارب دمه القوار ؟ وأى آسى مكتوم كانت تحتزنه نفسه لتفزع به على الناس لاحقاً من اللظى وصيباً من الدموع ؟

هل من سر لهذا كله غير البؤس والشقاء ؟ أجل ! إنه البؤس وإنه الشقاء ، وحسبهما كارثة أو مصيبة تفدح الأعصاب ، وترجى الأوصاب ، وتدفع إلى النفس المصاب ، وحسبهما عاصفة هوجاء لا تخمد أوارها حتى تكون ضحيتها ربما على الثرى ، وحطاماً منتثرًا ، ورجاماً مبعثراً ! !

هكذا كانت حياة المنفلوطي في مختلف مراحلها — على ما اعتقد — صورة واحدة تجتمع إليها ألوان لا تستطيعها يد الصناع الفنان ، ولا تستطيعها الريشة الماهرة المجدية المنتجة الأخاذة .

توجع وأنين ...

وهذه الصورة ، ماذا تكون ؟

إنها الصورة التي أدرك الشرق العربي منها كيف ينتهي الدمع إلى الصميم ، وكيف تذوب القلوب المتحجرة في بوتقة النار المحرقة، تلك نار الشجن الهائل الحافل ، التي استمتع المنفلوطي أن يندق منه على قراء العربية صيباً جزيلاً، فيه تحقيق للجوانب العابسة ، وفيه تألب على كل جانب مشرق وناحية طروب .

ومن حق المنفلوطي أن تخلده هذه الخاصة التي تفردها بين كتاب العربية جميعاً، وأعنى بها خاصة التوجع والأتين ؛ ومن حقه أيضاً أن يظل إلى الأبد موضعاً لا كبار قرائه ، وتمجيدهم لذكراه ، وترجمهم على حياته التي غدت فيهم ناحية الرحمة ، وأناحت لهم أن يركنوا إلى قرار الحنان .

وإذا كانت هذه الصورة الباقية قد أثارت في نفوس المتأدين حالة من التوجع ، أو إذا كانت هذه الصورة قد أثارت في نفوس القراء حالة أخرى من الرضى والقناعة والاطمئنان ، فإنها قد أثارت في الناس جميعاً — متأدين وغير متأدين — روح التمرد على تلك العروض الغانية ، عروض اللذازات التي تقيض عن نعماء الدنيا ورغد العيش وهناءة الأيام .

وللمنفلوطي أن يخلد كل الخلد ، وأن يبقى على الزمن ، لأن قلبه اتقاره القدر الجوال ، وأسلوبه الفصيح الصريح ، قد مهدا لمواطن الناس أن تخلص من الغلظة، وتنأى عن مواطن التحجر، وتتعهد البر والرحمة، وترضى بما في الحياة من آلام، وتفتنع بما فيها من آمال ، وما يعج به بحرهما من أوجاع ، وما يقوم على شاطئيه من أشواك .
ألوان العاطفة ...

وبعد ، فأى دموع سخينة تلك التي سحها على صفحات كتبه سحاً أولئك الذين يقرءون رسائل المنفلوطي ؟ بل أى عبارات تلك التي سكبها على « عباراته » سكباً ؟ لقد تفرحت جفونهم من الدمع ، ولقد مهدوا لآلامهم أن تتمرغ بتلك الآلام التي حملها كاتبنا الأشهر كواهل الأبطال في قصصه ، وكواهل الصفحات في « نظراته » .

ولقد راحوا بعدئذ يتساءلون : كيف رضى هذا القلم الجبار أن يقنع بالصور المظلمة من هذه الدنيا ، وأن يدفع عن نفسه كل جانب مشرق بسام ؟

ولكن : قليلاً من الأناة أيها الذين ذرقتم الدمع كما قرأتم شيئاً لكاتبنا العظيم . إنه كان يسترسل في كتاباته على سياق نفسه ، وعلى ما توحى إليه عواطفه الخاصة ، وأحاسيسه الرقيقة ، ومشاعره التي بدق فيها كل حس، حتى لتكون الهمة والأناة، حين تصدر عن وجدانه ، عاصفة داوية ، وريحاً صريراً طافية .

كان يأخذ أسلوبه عن طاقته غسب ، فكان هذا الأسلوب السهل البين صورة من الدمة التي تنحدر في أناته ، بينما هي جماع النار والألم، جماع الحرارة والعجبية، جماع اللأسة والعنف؛ وكان هذا « الموضوع » الذي يتخيره دائماً ، موضوع البؤس الكامل ، لأن البؤس كثيراً ما خلق

الزوبعة في النفس ، وكثيراً ما أتاح الصخب للحس ، وكثيراً ما دفع المرركة بين الحياة والموت إلى كل وجدان .

فهل كان المنفلوطي بأثماً حقاً ؟ وهل كان أسلوبه صورة من عواطفه ؟ وهل كان المنفلوطي رجلاً من رجال التمام ، وبقية من زمرة المنجمين ، حتى يتفق له هذا النفاذ إلى دخائل المشاعر الدقيقة التي تحتضنها نفوس الناس ، وتضن بها على البذل ، وتحرص عليها من لومة الشيوخ ، وتختزنها خوف الذبوع ؟

أجل ! إنه كان بأثماً ، ولكنه لم يكن من أولئك الذين اخترمت بصيرتهم حجب الغيب ، وإنما كان من هؤلاء الذين تسبح نظراتهم في مجرى عواطفهم . . . فهو يحس ، ويدق فيه الاحساس والشعور ، حتى ليسمع أنه المصدور في فجوة الأرض ، كما يسمع صرخة التائه على الأديم الفسيح . إنه لم يكن من أولئك الذين احتملهم سحر الأحجية والتعاويذ ، وإنما كان رجلاً يعني بأوضاع نفسه وألوان حياته . . . لأنه يؤمن ملة قلبه أن هذه الأوضاع وتلك الألوان ، لها في كل جانب من الدنيا نظير مستور وشبيه مقبور .

وإذا كان « المنفلوطي » قد مهد للبائسين سبيلاً إلى الصبر ، ووسيلة إلى التعلل ، وناحية من نواحي السلوان ، فإن حياته في مستهلها هي التي أناحت لصوته أن يكون نافذ النبرات ، قوى الأداء ، سليم التوقيع ، رائع النغم ، داوياً حين يدوى ، هادئاً حين يريد الهدوء ، ساكناً حين يشاء صاحبه أن يكون ساكناً ، حافلاً بالدعة والمرح والايناس ، خصائص رسالته . . .

لقد نجح المنفلوطي في أداء رسالته الحققة نجاحاً منقطع النظير ، فإليه وحده يعود ابتكار الأسلوب الجزل السهل الممتنع الجذاب ، وإليه وحده يعود توجيه النثر العربي في العهد الحديث توجيهاً فنياً مترناً طليقاً من شوائب اللسنة والعي والمهاترة والاستخذاء والجلود والركود ، وإليه وحده يعود الفضل الحافل في تمزيق آخر صفحة من صفحات الركافة ، التي كانت جماع ما يبلى النقادة في كتابنا الذين جموا بين رقدة القرن التاسع عشر ، ونهضة القرن العشرين . إلى كاتبنا وحده تعود هذه الفضائل ، وليست هي كل ما يميز به على ما فيها من عظمة كل العظيمة ، وعلى ما فيها من رواء كل الرواء ، فقد يميز الرجل بخصائص الرجل الكامل ، هذه الخصائص التي قلما يستطيع أحد أن يجمعها إلى نفسه جملة واحدة ، وحشداً واحداً .

وإنه ليقمن بنا أن نطلق الضوء على هذه الخصائص ، فنحسبها أول الأمر ، ثم نعقب على هذا الاحصاء بتحقيق دقيق لأثرها عليه ، وأثرها على قرائه ، وأثرها بمدى على الأدب العربي ، (١) أسلوباً وتفكيراً .

إيمان وبقين . . .

وما من ريب في أن بداية هذه الخصائص ، إنما هي إيمان المنفلوطي إيماناً هو فوق اليقين ،

(١) أوجاً تبحث هذه النقطة الى فرسة أخرى .

وفوق الصراحة الحاسمة بما يصدر عن قلبه ، وما ينتج عن يراعته . ولكي تدرك مبلغ ما في هذه الخاصة من روعة ، ومقدار ما تتعمده من خطر ، يجدر بنا أن نحدثك بأن جمهرة من كتابنا كثيراً ما يوزعون في رسائلهم أفكاراً مستحدثة لا يستطيع أحد منهم أن يستطيعها لنفسه ، أو ينشدها لحياته الخاصة ، كأن يلج أحدهم - مثلاً - في طلب الحرية للنساء ، وحرية السفور ، وحرية التمتع بالحق المدني كاملاً غير منقوص ، حتى إذا دعى مع زوجه إلى حفل مشهود ، تألب على الداعين ، ونهض إلى آذانهم يقرع فيها احتجاجه الصارخ قرعاً ، لأنهم ذهبوا في الزرابة بتقاليد بيته مذهبا لا قبل له باحتاله ، ولا مفر له من أن يحتج عليه احتجاجاً شديداً .

ولكن المنفلوطي كان لا يرسل الفكرة في رسائله إلا بعد أن يؤمن بها أعمق الإيمان ، وأخلص الإيمان ، فهو إذن رجل صادق الوحي ، صادق التقدير لمواظفه؛ صادق الود لنفسه ، صادق الوفاء لزوجاته وخوالجه وهواجسه جميعاً .
سلطانه على قرائه . . .

وإلى هذه الخاصة - على خطرهما - تستقبلك في المنفلوطي خاصة أخرى؛ ليست بأقل خطراً ، ولا بأهون شأنًا ، تلك هي عنايته بإيقاظ الجماهير على ما فيهم من تناقض في المدارك ، وتباين في الطبقات ، واختلاف في الثقافة، وتفاوت في التهذيب... وهذه العناية منه كانت في الواقع أجد ما أتى الرجل ، وأخذ ما خلف بين الناس ، لأنها من نوع قلما يستطيعه إلا كثرون .

كانت « نظرات » المنفلوطي ، وكانت « عبراته » ، وكانت هذه القصص التي ترجمها ، كان هذا كله يندفع إلى الجماهير ، فيقرأه الرجل المثقف على أنه هدية لا يتأتى نيلها إلا لرجل مثقف ، ويقرأه التلميذ الناشئ على أنه خير ما يستطيع أن يفهمه ويدرك خباياه، ويقرأه العامل ونصف المتعلم على أنه رسالة لها على المشاعر سلطان قوى ، ولها في الوجدان نفوذ غير محدود .

أولئك جميعاً - المثقف، والناشي، والعامل، ونصف المتعلم - قد فهموا « المنفلوطي » فلم يملوه ، ولم يجتووه ، ولم ينقلهم حديثه ، أو تهديح كواهلهم آياته . . . فأى سحر في هذا الرجل ؟ بل أى سحر في أسلوبه حتى قدر له أن يطمئن إلى إعجاب الناس جميعاً ؟

الواقع أن روح الرجل كانت تخلع على رسائله ثوبا من الصدق ، وأن حياته الخاصة - بما فيها من كفاف - قد حققت لرسائله أسلوب الدقة ، ومهدت لها طريق الذبوع ، وتفتحها بما يشبه شذى الأزاهير وعبيق الورود .

والواقع أن هذه البساطة في كل شيء ، قد مكنت للرجل أن يكون هادئ الأعصاب ، بعيداً عن شهوات النفس : كاللحد والحسد والموجدة والثورة والجمود ، . . . الخ ؛ فهو إذن يلبس المنطق السليم ، ويجابه الذوق السليم ، وله من منطلقه ما يزيد في وجاهة آرائه ، وله من ذوقه - بعد هذا كله - ما يزيد في أسلوبه روعة ، وفي معانيه دقة !

والواقع أن أسلوب « المنفلوطي » كان أسلوب الرجل ذى العواطف الدقيقة ، لأنك تلمس فيه الجاذبية التي لا تتأني إلا من موسيقى رائعة ، ومن موسيقى بارع . . . ففى هذا الأسلوب حدود تكاد تشبه حدود الشعر الملقى ، وفيه توقيع يكاد يشمل ما فى فنات المنابر الصداح من توجيه مترن ، وتلويح مبرقش ، وتقلب رشيق ، وخاتمة لا تقع حين استقرارها إلا على قلوب السامعين .

فهم دقيق ...

وإلى هاتين الخاصتين — على ما فيها من خطر أيضاً — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى ، هى فهمه لما يدق على نفاثته أن يفهموه . ففى قصة « الشاعر » ، وفى « ماجدولين » ، وفى « الضحية » ، وفى « الانتقام » ، وفى « الفضيلة » ، وفى « عبراته » أيضاً ، فى هذه القصص مواقف غريبة عن جو الرجل الأزهرى ، بل هى غريبة عن جو المصريين ؛ ولكن المنفلوطى حين أدرك هذه القصص ليبعثها إلى قراء العربية موشاة بقلمه القارء ، لم يكن من شأنه أن يدع ما يطلق القاصون عليه « عقدة القصة » ، وأن يترك هذه « العقدة » أو يوزعها توزيعاً لاجبة فيه . . . وإنما استطاع ، فى كثير من السهولة ، أن يترجم العواطف التى جمعها هذه القصص جمعاً ، وأن يكون فى ترجمته لها غير متبلد ، وغير مسوق بشئ من العى ، أو شئ آخر من التعقيد .

وحى العاطفة ...

وإلى هاتيك الخصائص الثلاث — على ما فيها جميعاً من خطر — تستقبلك فى المنفلوطى خاصة أخرى ، هى جنوحه إلى وحى عواطفه ، دون أن يكون متاجراً بأسلوبه القيم ، أو نفوذ الدائع ، أو صيته البعيد ؛ بل دون أن يكون مخرجاً ، أو مهوشاً ، أو متابهاً لرغبة السوق ، وأطماع الوراقين ! ذلك أنه لم يترجم قصة تناقض عواطفه ، ولم يؤلف قصة تناقض عواطفه أيضاً ؛ ففى « الشاعر » رجل شقى هو « سيرانو دى برجرارك » ، وفى « ماجدولين » رجل يأس بأس هو « استفن » ، وفى « اليتيم » — وهى قصة مؤلفة — إنسان حفلت المصائب على كاهله ، وفى أشنات الأقاصيص التى ألفها أبطال هم فى الحق أبطال البائسين ، جرت بأنبأهم يراعة المنفلوطى القادرة ، فسحت لهم دموعاً هى دموعه ، وأبقت لهم ذكراً هو ذكره .

ولو لم يكن كاتبنا يساير عواطفه حقاً ، أما كان من خيره أن يصطنع بقلمه وجوهاً غير هذه الوجوه القائمة ، وأن يلمق أبواباً غير هذه الأبواب الثقيلة الرتاج ؟

أثر خصائصه

أما كيف أثرت هذه الخصائص فى الناس ، فمناحسب أن أحداً ينكر على المنفلوطى أنه جمع أسباب الخلد كله ؛ فما تزال كتبه ذائعة لها رواجها ولها انتشارها الدائم ، مما لم نر له شبيهاً فى مصر ، بل فى الشرق كله ؛ وما تزال كلانته حلية الرسائل ، بل ما تزال نروة للمتنبسين ؛ وما تزال آراؤه هى الآراء الجديدة البكر ، وسيمضى عليها الزمن حقة إثر حقة دون أن يخبو ضوءها اللامع ، ودون أن يهزل هيكلها القوى البناء .

حياته في بيته

وإذا نحن بحثنا هذه الخصائص كلها على ضوء حياته الخاصة ، تمتثل لنا روح الألفة بين الرجل وبين إحتاجه ... ذلك أنه كان يعيش في بيته سرى العاطفة ، إذا تقطبت أساريره فلن تتقلب إلا للحادث الفادح ، وإذا انفرجت هذه الأسارير ، فلن تنفرج لما يستقبل من تقع مادي ، وإنما تنفرج لما ينشرح له صدره حين يقضى حاجة معوز ، أو يدفع عن واحد من أصفياه أذى . أما البساطة في العيش ، وأما التألب على الأناقة والبهرج والخرف ، فقد كانا خير ما في حياته الخاصة من صفات .

كيف كان يكتب ؟

كان الرجل حين يريد أن يكتب لا يقتنص بنات النثر ، ولا بنات القريض ، بالروضة الفينانة ، ولا بالكأس المترعة ، ولا بالأكلة الدسمة ، ولا بالمشاهد الرائعة ... وإنما كان يقتنص المعنى البكر ، والكلمة البكر ، بهذه الجلسة المتواضعة على السرير ، بينما يرفد أمامه إبريق من الشاي !

حياته وأسلوبه صورة من عائلته

هي إذن حياة سهلة تشبه أسلوبه السهل ، أو أسلوب سهل يشبه حياته السهلة ، ويمثل عائلته ووجدانه أصدق تمثيل ، وهي إذن حياة سرية بالعواطف الخيرة تشبه أسلوبه السري بالعواطف الخيرة . فكانت هذه الحياة مثار إعجاب وتقدير ، كما كان هذا الأسلوب مثار إعجاب وتقدير . وإذا كانت هذه الحياة قد أثرت على صاحبها في شيء ، فالحق أن لها أثراً باقياً لا يبديد ، هو أن « المنفلوطي » لم يجد له في حياته عدواً أمن له في العدا ، وأطرب في إيذائه والتألب عليه . وإذا أنت علمت أن كاتبنا التابه قد لقي في حياته من نباهة الذكر ، ما يوفر له حشداً من الحاسدين ، وجملاً من الناقدین المرغضين ... وإذا أنت علمت أن الحسد « الأدبي » كثيراً ما يولد الضغينة الشخصية اللاذعة المرقة ... وإذا أنت علمت أن المنفلوطي لم يلق في حياته وبعد موته من يتقول عليه ، أو يدفع إليه كلمة نابية ، أو حديثاً جافياً ...

إذا أنت علمت ذلك كله ، أدركت في شيء من السهولة ، أن الرجل كان يصدر عن عائلته ، ويستوحيا ويعمل في ظلها ، ومن ثم يتحقق لك : أن أدب المنفلوطي كان كمنفلوطي نفسه ، صورة من عائلته الخاصة ، وأن رسالة المنفلوطي رسالة صادقة حققة ، هي خلاصة ما أوجت به عائلته الخاصة .

ولهذا عاش من غير سر يفضح ، ومات كما عاش مخفياً بالتوقير والتقدير .

عبد العزيز الاسلامبولي